احتجاجات المدارس خطر على مهابة العلم ومكانة المعلم

تحقيق / محمد محمد إبراهيم

لا أعتقد أن عاقلاً وتحت أي عذر يحبذ أن معلماً يهان في ساحة مدرسة من مجموعة من الطلاب الذين لا يعون جرم ما يصنعون من تنفيذهم لأوامر من يحرضهم على مدرس ما، وأياً كان خطؤه فإدارة المدرسة أو مكتب التربية أو الوزارة هي الجهات المعنية – وحدها – بعقاب المعلم إن أساء للعلم ورسالة المعلم .. ولا يصدق عقل أن لدى طالب حتى في الثانوية إرادة التمييز بين الخير والشر وأن عقله سيهديه إلى فعلٍ مسيئ دون تحريض من أحد أو تقليد لظاهرة ما .. ولكم هو مؤلمٌ جداً أن ترى هيبة معلم تهتك من قبل طالب في ساحة مدرسة على ملء من الزملاء الشامتين منهم والمتعاطفين، لكن مشهداً مثل هذا سيعني أن من يستغل الطالب ويوجه لذلك سينال نفس العقاب عاجلاً أم آجلاً، وليس هذا القضاء الحتمي هو الخطر بعينه .. بل الأخطر هو تلويث مكانة المعلم بدنس السياسة، فهذا ابتداع سنة سيئة من شأنها هدم قيم التعليم وعدم احترام رسالة المعلم وتجهيل أطفالنا بدل تعليمهم، ففقه الكتابة والقراءة لا يعنيٍ تجاوز أمية القيم السامية مالم نلتزم احترام كل من وقف أمامنا معلماً لنا حرفاً وعلمنا أن الدين هو المعاملة وليس السياسة أو العصبية، فكيف نغرس في نفوس أطفالنا هذه المظاهر السلوكية الثأرية والانتقامية دون استشعار خطرها في المستقبل..

فأين يكمن جوهر معضلة وصول الاحتجاجات إلى شريحة الطلاب، وهل يملك الطالب حق اختيار من يعلمه ويربيه وقدرة التمييز بين الأفضل؟، وكيف وصلت عدوى العبث السياسي إلى المعلمين ليستخدموا الطلاب في تصفية الحسابات مع زملائهم؟.. في هذا التحقيق عمدنا إلى بلورة رؤية لمختلف الاتجاهات التربوية حول هذه المعضلة مستقرئين أثرها على هيبة التعليم وقداسة المدرسة..

في إطار التساؤل السابق يمكن القول: إن التغيير في السلك التربوي–حسب المألوف – يقتضي الاعتماد على خطوات منهجية وإجراءات رقابية لمسار العملية التعليمية تفضي هذه الإجراءات التي يتم تدوينها إلى دراسات تفضيلية وتوجيهية تربوية في كل بلدان العالم وصولاً إلى معرفة التربوي الناجح والفاشل والقادر على العطاء، وكذا الواجب تغييره والواجب على المؤسسة التربوية تطوير قدراته التعليمية وغير ذلك من النتائج.. لكن قبل الخوض في تلك التفاصيل سنرجع للخلف بعمرنا التربوي حيث كنا أطفالاً نقف أمام معلم عراقي أو سوداني أو مصري أو غيره، لنسترجع علاقة الطالب بالتعليم والمعلم والمدرسة.

ففي مفارقة بين مهابة التعليم بين الأمس واليوم يقول التربوي جابر المخلافي – مدرس فيزياء في أحد المدارس الخاصة ثمان سنوات تدريس: لا ينسى أحدنا بتاتاً المهابة التي كان يكتسي بها جو المدرسة والمعلم السوداني أو المصري أو العراقي حين يدخل الفصل الدراسي أو يقف في الطابور، الكل ينظر أمامه ويتحسس أصابعه .. يحاصره ويذبح أمنه الخوف متسائلاً في نفسه: هل قصصت أظافري؟ وحسنت مظهري ؟.. وبعضنا كان ينظر نحو كل بقعة من قميصه و(فوطته) – لباس ما قبل نظام الزي المدرسي – وحتى ينظر إلى أظافر رجله .. وفي خضم هذا الحصار المخيف المحاط بشعور العلم ومهابة التعليم نتلمس بألحاظنا حجم سوط المعلم الذي يحمله أو ما يسمى بـ(المجلد).. ويتضاعف الخوف من التأنيب قبل السوط عن أسباب غياب يوم أمس إذا كان أحدنا غائباً حتى ولو كان مريضاً.. أين هذا الجو اليوم ؟ .. إن الطالب اليوم صار بإمكانه التصرف كيف يشاء وخارج سلوك التعليم .. حتى العقاب صار لا يعني له شيئاً والأغرب أنك تسمع الطفل يردد : « أنا حر « .. في نبرة تعبر عن فهم خاطئ سببه المجتمع الذي لا يعي أثر هذه الكارثة على تدني مستوى تقديس واحترام التعليم لدى أجيالنا الناشئة ..

مدرسون أساءوا للتعليم

■ مؤخراً سمعنا باحتجاجات حصلت في أكثر من مدرسة، جوهر هذه الاحتجاجات أن الطلاب فجأة أو مجموعة منهم يقومون بمظاهرات في المدرسة يريدون رحيل المدير أو المديرة، فهل يعني أن الطلاب على علم وإدارك قيمي أن هذا المدير أو تلك المديرة لا تصلح لأن تكون مديرة ؟ الجواب بالتأكيد لا .. لا .. لا . إذن من يقف وراء تحريض الطلاب؟

–ثمة مجموعة من المدرسين التربويين – للأسف الشديد –استغلوا خلافاتهم مع مدرائهم التربويين في المدارس استغلالاً سياسياً خارج المهنية والقيم التربوية، والجميع يعلم أن ثمة نماذج غير عملية دائماً ومخالفة لقيم العمل في مجالات الحياة وهم أول من يستغلون الظروف العصيبة للانتقام من مدرائهم ومسؤوليهم في أي عمل.. كل ذلك ما حصل في مدرسة الرسالة .. فالأستاذة إشراق العزي لم تتجاوز ٦ سنوات في إدارة مدرسة الرسالة – منطقة معين التعليمية –» كمديرة» .. وجدت نفسها مع سيارتها تحت انتفاضة مجموعة من الطالبات أهلن عليها وابلاً من الحجارة.. وفي بحثنا معها نستشف أن التعامل الإداري المهذب مع المدرسات المخالفات فرض على المديرة نقيضا من التعامل السيئ من قبل المدرسات اللائي تكررت أخطاؤهن طوال المرحلة الماضية – حسب تعبير الاستاذة إشراق –..

تقول الاستاذة إشراق مديرة المدرسة : كل ما يربطنا داخل المدرسة هي علاقة عمل في منتهى المهنية ولم أتعامل مع أحد على أساس سياسي أو شخصي أو غيره .. ومجموعة من المدرسات هن المخالفات اللواتي أتخذت ضدهن إجراءات إدارية دافعها الأمانة والاحترام لقيم العمل التربوي لا أكثر.. ولو تبحث عن مبررات التحريض والخلاف مع هذه المجموعة اللواتي أطلقن على أنفسهن «بنات الساحة» –للأسف الشديد– كلهن مخالفات ولن أذكر أسماء.. فواحدة منهن اكتشفت أنها زورت إجازة وضع فعملت لها لفت نظر، كأدنى إجراء إداري تحتمه المهنة، وأخرى كانت مسؤولة في المعمل فأساءت استخدام ممتلكات المعمل وباعت من أدواتها الكمبيوترية، فوقفتها عن العمل وعادت بضمانة، وكان هذا قبل سنتين، وأخرى كنتُ قد نويت ترشيحها وكيلة، وحين اكتشفت أنها تبيع أوراق أسئلة الاختبارات للطالبات بمبالغ مالية، اتخذت ضدها إجراءاتي كمديرة، وأعطيتها لفت نظر إذا تم تكرار الرشوة والغش سيتم الاستغناء عنها، إلى جانب هذا عدلت عن قراري بترشيحها كوكيلة .

وأضافت العزي: هذه الإجراءات تجمعت وتجمدت ردات فعلها حتى جاءت الأزمة وخرجت مجموعة من هؤلاء المدرسات للساحات والغياب بسبب الساحات مع أن التعليم لاعلاقة له بأي عمل سياسي، وقد بدأت الاحتجاجات في المدرسة بتحريض طالبات الثالث الثانوي، بسبب نقل أحد المدرسين رفض أخذ جدول كامل من الحصص إذ يعمل إلى وقت الراحة ويذهب مدرسة خاصة ونحن في أمس الحاجة إلى المدرس الواحد، ورغم النقل الذي جاء من مكتب التربية بالأمانة إلا أن المدرسات ظللن يحرضن الطالبات على الإضراب والمطالبة بعودة المدرس، وتدخل الاستاذ / محمد الفضلي مدير مكتب التربية بالأمانة .. وفي اليوم التالي كنت في المعمل، وخرجت وتفاجأت بمدرستين يحرضن مجموعة من الطالبات ويوجهنهن بالدخول إلى المعمل وأمرهن بضربي وتكسير أجهزة المعمل، وعندها خرجت لأذهب إلى البيت، ولكنهن استمرين في التحريض والأمر للطالبات بالاعتداء عليّ وقمن برجمي بالحجارة وتكسير سيارتي والإضرار بها وبي إلى درجة أنهن تطاولن بأيديهن عليّ وحاولن تجريدي من اللثمة..

مديرة مدرسة الرسالة: مجموعة من المدرسات يحرضن الطالبات رداً على إجراءات إدارية ضد المُخالِفَاتْ موجهون: توصيات التوجيه التربوي لم يعمل بها منذ سنوات فتراجع دور الموجه والمقوم التربوي

وقالت مديرة مدرسة الرسالة الاستاذة اشراق العزي الموقوفة في البيت بسبب الاحتجاجات إنها لجأت الآن للقضاء للمطالبة بإنصافها وإنصاف العلم ووضع حد للمدرسين والمدرسات أياً كان انتماؤهم السياسي بعدم استغلال الطالب وتحريضهم لأن هذا بحد ذاته خطر على التعليم وهيبة ورسالة المدرسة.

نماذج تربوية سيئة

صحيح أن هناك نماذج تربوية سيئة أخلت في أداء حقوق الطالب التعليمية والتربوية إلى درجة أن مدير أحد المدارس ومدراء مراكز تعليمية يتعاطون الرشوة التي قد تحصل من أجل النجاح خصوصاً أيام الامتحانات النهائية – حسب الكثير من شكاوى الطلاب – إضافة إلى أن بعض مدراء المدارس لا يداومون في مدارسهم إلا يوماً واحداً في الأسبوع وهذا حاصل في الأرياف وفي المدينة ، يرافق هذا تدني مستوى اهتمام المدير والتعامل بالصرامة تجاه المعلمين الذين لا يهتمون بتطوير أنفسهم والظهور بالمظهر والجوهر الأخلاقي اللائق الذي يرسم صورة ذهنية فذة للمعلم كحامل رسالة تربوية نبيلة جديرة بالاقتداء.. هذه الأخطاء التراكمية – حسب علي النجدي – أستاذ جامعي وعضو مجلس آباء في مديرية معين– أدت بالطالب للاستهتار بواجبه والتزاماته البديهية والمتعاهد عليه تجاه طلب العلم واحترام معلميه واحترام قيم المدرسة ورسالتها التربوية والتعليمية والقيمية..

التربوية القديرة جوهرة هواش مديرة إدارة المشاركة المجتمعية بمكتب التربية بأمانة العاصمة، أكدت أن مشكلة النماذج السيئة التي أضرت –ليس بالمدرسة بل بالمجتمع من سنوات – تكمن في قيادات تربوية معتقة تعاقبت على الإطلاع والإشراف التربوي لسنوات طويلة مع علمها أن مثل هذه النماذج هم من أساءوا للعملية التربوية في الامتحانات فأي صلاح للعملية التربوية في ظل مثل هذه النماذج السيئة، التي تعد من أبرز الأسباب التي جعلت المجتمع يستاء منهم، وجاءت عاصفة التغيير لتعطي الطالب فرصة التعبير بكلمة (لانريده مديراً للمدرسة) وهي تعبير عن عدم احترام الطالب لهذا التربوي الذي يعلمه قيماً وأخلاقاً ويأتي في تعامله مع الطالب ومع الناس بقيم أخرى وصور مشينة مناقضة لما يدرس ويعلم..

غياب الإنصاف

وقالت هواش مستاءةً من عدم التغيير المنهجي وغياب الإنصاف التربوي في التعامل مع الكوادر التربوية وفي التعامل مع شكاوى الطلاب ومجالس الآباء : (وهناك كثير من الأخطاء الإدارية ألقت بظلالها على علاقة الطالب بالمدرسة، بل بالمدير .. فظل الطالب لسنوات طويلة يعاني تصرفات المدير واستخدام العنف وحرمان الطالب من حقه في الشعور بالانتماء إلى المدرسة .. وإلى المدرس خصوصاً بعد أن أصبح المدير سلطة تمارس أقسى أنواع العقاب مع الطلبة).

وتساءلت هواش : هل نظرت الوزارة في مشكلة طالبة فصلت في بعض المدارس لمدة شهر تعسفاً؟ .. وهل تم العمل بالتوصيات التي تأتي من الموجهين التربويين؟ .. وبالتالي فمن الطبيعي أن ينعكس غياب الإنصاف على ثقافة الطالب وتعاطيه مع مدير مدرسة بهتاف «ارحل « .. فإذا كان الشعب يقول للكبير»ارحل « .. فماذا نتوقع من الصغير خصوصاً عندما لا يلقى الرعاية اللائقة به في المدرسة .. خصوصاً والطالب يلاقي ما يلاقي نقص الكتاب المدرسي، نقص الكرسي، نقص التغذية المدرسية.. وقف المدرسين الممتازين.. بعض الطلاب يفضل البقاء في الشارع على المدرسة نظراً للعقاب القمعي.

ضرورة معالجة الأخطاء

وأضافت التربوية جوهرة هواش مديرة المشاركة المجتمعية بمكتب التربية بالأمانة : ومع هذا يجد الطالب نفسه في نفس الوضع الماشي عليه سنوياً والذي مشى عليه أخوه من قبله .. فتصور، مديرة تظل ثلاثين سنة وخمسة وثلاثين سنة درستني ودرست بنتي وربما حفيدتي .. حرام.. هذا حرام .. وبعضهم أصبح يعتبر المدرسة ملكه.. ويتصرف فيها كملك خاص وبمركزية إدارية مطلقة ..

وحول ما يجب فعله تجاه هذا الخلل الحقيقي في العملية التربوية قالت هواش : نحن لا نشجع الطلاب على هذا الفعل الخطير على التعليم لكننا ندعو كل من يهمه أمر التربية والتعليم إلى معالجة الأخطاء، وتفعيل القوانين التربوية، والتغيير المستمر والقائم على الأفضلية التربوية والتعليمية، العمل بتوصيات التوجيه التربوي وتفعيله لما يخدم العملية التربوية ... فلو لم يكن هذا نتيجة أخطاء إدارية تربوية في بعض من المدارس .. ولم يكن استغلالاً سياسياً كما يقول البعض .. فلماذا لم يحصل هذا في مدرسة أروى أو مدرسة الأقصى أو مدرسة رابعة وغيرها.

التوجيه التربوي

أن يستمر مدير المدرسة طوال حياته مديراً ولا يتم تغييره .. أن يظل المدرس الجيد أكثر من خمس عشرة سنة دون ترقية أو تطوير مواكب فماذا يعني التدريس لديه، بعد أن يمل ويتدنى مستوى الحماس.. وهنا يطرأ سؤال هام جداً هو: أين دور التوجيه التربوي أو التقويم التربوي ؟ وأين تذهب توصيات ونتائج الموجه التربوي الميدانية ؟

في نقاش مع موجه تربوي – فضل عدم ذكر اسمه – يعمل في أحد المراكز التعليمية بمديرية السلفية محافظة ريمة منذ ١٨ سنة، شرح بمرارة كبيرة وضع المدارس، وتعطيل رسالة التوجيه التربوي واعتماد تعيينات المدراء بناء على القرابات وعلى المجاملات .. مشيراً أن بعض المدراء لا يدخلون المدارس إلا مرة واحدة بالشهر ..

وقال أيضاً: في أحد المدارس ثمة مدير لا يحضر نهائياً رغم إلزامنا في التوجيه التربوي له بتدريس حصص يومية لشحة المدرسين ورغم هذا لم يحضر بتاتاً .. ومدير مدرسة أيضاً لا يملك مؤهلاً نهائياً فقط قربه من المدرسة وكونه يقرأ ويكتب، ولأنه من أسرة كبيرة – حسب التعبير القبلي – بقى مدير المدرسة طوال أكثر من عشرين سنة وما زال ..

المشاركة المجتمعية: استغلال الوظيفة التربوية وغياب الإنصاف الإداري أوصل المدرسة إلى هذه الحالة أخصائيون اجتماعيون: ندعو لعدم استغلال الطالب سياسياً ومكانة المعلم يجب أن تحترم

الموجه التربوي أكد أن الخلل لا يكمن في التقييم التربوي أو التوجيه التربوي فتوصيات التوجيه التربوي تصل إلى مكاتب التربية والمراكز التعليمية لكن لم نعلم أن أي تعيين أو ترقية مصدرها التعليم ولم يعمل بتوصيات التوجيه التربوي منذ سنوات نظراً لقيادات معتقة همشت دور الموجه والمقوم التربوي إلا أننا في فترة من الفترات اقتربنا من الإلغاء لشيء اسمه التوجيه التربوي..

الأخصائي الاجتماعي

علاقة الأسرة بالمدرسة والطالب بالمدرسة مرتبطة ارتباطاً كلياً بالاخصائيين الاجتماعيين لدراسة مشاكل الطلاب قبل استفحالها، وعكسها في الخلافات التي قد تنشأ بين المدرسين مع بعضهم ومن ثم مع أولياء الأمور ومن ثم تسييس التعليم والإضرار به فيعود الجميع يبحث عن المسؤول.. في هذا الخصوص تقول الإخصائية الاجتماعية بمدرسة الزبيري – نجلاء المهدي: المجتمع كله بشرائحه المثقفة والسياسية مسئول أمام كل ما يعتري التعليم من تدني بسبب صراعات سياسية لا علاقة للطالب « الطفل» بها.. فالطفل لا يقلد إلا ما يراه في المجتمع من ممارسات وسلوك.. فهو لا يملك الإرادة والرأي التي تخوله شرعياً في الوصول إلى الصواب والوصول لما ينفع فلا إرادة مطلقاً ولا قدرة على التمييز بين الخير والشر..

وحول دور الاخصائي الاجتماعي في حل مشاكل الطلاب حتى لا تستغل من ضعاف النفوس .. قالت المهدي: الاخصائي الاجتماعي هو حلقة الوصل بين المدرسة والأسرة فبمجرد غياب الطالب نبحث أولاً مع الطالب لماذا غاب وما هي ظروفه .. وأين ذهب ؟ وفي حال تكرار غيابه نستدعي ولي الأمر.. فبعضهم يتجاوب معنا وبعضهم بصعوبة وبعضهم لا يتجاوب ..

وأشارت المهدي إلى أن ثمة مفاهيم خاطئة ورثها الطالب من البيئة الاجتماعية المحيطة به، فالطالب مثلاً يردد دائماً عبارة (أنا حر) ولم يعلم معنى ما يردد، وللأسف الشديد المجتمع بنفسه هو السبب ولم نستوعب كيف نعلم ونربي أطفالنا على مثل هذه المفاهيم، في حدود القيم المثلى التي تجعل للمدرسة مكانة رفيعة في نفس الطفل من يوم دخولها والتعلم فيها إلى أن يموت، إدراكاً منا جميعاً أن المدرسة ليست مكاناً للحرية بقدر ماهي منبر للتقيد بآداب العلم والتعلم.. فلو قام كل طالب وقال للمعلم (لا نريدك) فهذا الطالب لا يريد المستقبل ولا يريد التعلم، أضف إلى ذلك مدى الإحباط الذي قد يصيب المعلمين المخلصين الذين يعملون على الدوام وكما لو أنهم آباء..

وحول ما جرى من احتجاجات في بعض المدارس الحكومية قالت المهدي : ما حصل هو نوع من الاستغلال السيئ للطالب المتمرد الذي لا يريد العلم، من قبل مجموعة من المدرسين أو المدرسات طغت السياسة عندهم على قيم العلم السامية ورسالة المعلم النبيلة .. فاستغلوا الوضع السياسي والتعصب الحزبي الضيق وعمدوا إلى تحريض الطلاب الصغار على الاحتجاج تحت دعاوي تغيير المدراء إما ليحل هؤلاء محلهم أو الإضرار بسمعة المدير أو المديرة.